

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣ - سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

سميت بهم لاشتمالها على جلائل أوصافهم وتناجها ، في أولها وفي قوله (١) (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) إلى قوله (سَابِقُونَ) أفاده المهايي . وهي مكية . واستثنى بعضهم منها آية (٢) (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ) إلى قوله (مُبْلِسُونَ) وآيها مائة وثمانى عشرة . وقد روى الإمام أحمد ومسلم (٣) وغيرها عن عبد الله بن السائب قال : صلى النبي ﷺ بمكة الصبح . فاستفتح سورة المؤمنون . حتى إذا جاء ذكر موسى وهرون ، أو ذكر عيسى ، أخذته سعة فرجع .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٧] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٦٤] .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤١١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وأخرجه البخارى تعليقا في ١٠ - كتاب الأذان ، ١٠٦ - باب الجمع بين السورتين في الركعة

وأخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٦٣ (طبعتا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)
- [٢] (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)
- [٣] (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)
- [٤] (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)
- [٥] (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)
- [٦] (إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)
- [٧] (فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » أى دخلوا فى الفوز الأعظم « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » أى متذللون مع خوف وسكون للجوارح ، لاستيلاء الخشية والهيبة على قلوبهم « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » . أى عن الفضول وما لا يعنى من الأقوال والأفعال ، معرضون فى عامة أوقاتهم ، لاستغراقهم بالجد « وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ » أى للتجرد عن رذيلة البخل .

قيل : السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ؟ وجوابه : إن الذى فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة . وإلا فأصل التفضل بالعفو مشروع فى أوائل البعثة ، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والمعصيان ، لعدم التبادر إليه « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » لأنه الحق المأذون فيه

« فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأَلْهِكْهُمْ الْمَادُونَ » أي الكاملون في العدوان المرتكبونه على أنفسهم .

تذبيات :

الأول - دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه ، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين . وأنه من المومنين . ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم . ففاساة ألم الشهوة ومعاناتها ، أيسر من بعض ذلك . وقد أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم . وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر ، جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج . فإن الحوادث مبدؤها من النظر . كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة ، ثم تكون خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات . فمبغى للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلتزم الرباط على ثغورها . فمها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تبيراً .

الثاني - روى عن الإمام أحمد أنه قال : لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى . واحتج بحديث عبد الله^(١) بن مسعود أنه قال : يا رسول الله أيّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال قلت : ثم أيّ ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت : ثم أيّ ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب تفسير القرآن ، ٢ - سورة البقرة ، ٣ - باب

قوله تعالى : لا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، حديث ١٩٦٢ .

فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجاب بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع ، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً . وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرا به . وأعظم أنواع الزنى أن يزني بجميلة جاره . فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهك من الحق . فالزنى بالمرأة التي لها زوج ، أعظم إثماً وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها . إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عاميه ، لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه . فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جاراً له ، انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى . وذلك من أعظم البوائق . وقد ثبت عن النبي ﷺ (١) أنه قال : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه . ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته . فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فإن كان الجار أخاه ، أو قريباً من أقاربه ، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فإن كان الجار غائباً في طاعة الله ، كالصلاة وطلب العلم والجهاد ، تضاعف الإثم . فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه ، انضاف إلى ذلك قطيعة رحماً . فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً ، كان الإثم أعظم . فإن كان شميخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم فإن افترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم وعلى هذا ، فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة . والله المستعان .

الثالث - أجمع المسلمون على أن حكم التلوّط مع المملوك كحكمه مع غيره . ومن ظن أن تلوّط الإنسان مع مملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى (١) (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) وقاس ذلك على أمته المملوكة ، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد . فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه . وتلوّط الإنسان بمملوكه كتلوّطه بمملوك غيره ، في الإثم والحكم . أفاد هذا وما قبله بتامه الإمام ابن القيم في (الجواب الكافي) . وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٣٩ - باب إثم من لا يأمن جاره

بوائقه ، حديث رقم ٢٣٢٦ ، عن أبي شريح . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] و [٧٠ / المعارج / ٣٠]

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

[٩] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[١٠] (أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)

[١١] (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » أى قائلون عليها بحفظها وإصلاحها . والآية تحتل العموم فى كل ما أؤتمنوا عليه وعاهدوا ، من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم . ولذا عدت الخيانة فى الأمانة من آيات النفاق فى الحديث المشهور^(١) « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى يحافظون عليها . وذلك أن لا يسموا عنها ويؤدوها فى أوقاتها ، وبقيمها وأركانها ، ويكولوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتم به أوصافها . وليس هذا تكريراً لما وصفهم به أولاً . فإن الخشوع فى الصلاة ، غير المحافظة عليها . وتقديم الخشوع اهتماماً به . حتى كأن الصلاة ، لا يعتمد بها بدونه ، أو لعموم هذا له . وفى تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة ، تعظيم لشأنها « أُولَٰئِكَ » أى الجامعون لهذه الأوصاف « هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ » أى الجنة « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » أى لا يخرجون منها أبداً .

ثم أشار تعالى إلى مبدأ خلقه الإنسان وتقليبه فى أطوار شتى ، حتى نما كاملاً ، وإلى ما خلقه من عالم السماء والأرض ، وسخره لمنافعه ، ليشكر مولاه ويعبده ، كما أمره وهداه ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث

رقم ٣١ ، عن أبى هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ)

[١٣] (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ)

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» أى ابتدأنا خلقه «مِنْ سَلَالَةٍ» أى خلاصة «مِنْ طِينٍ» أى تراب خاط بماء فصار نباتاً فأكله إنسان فصار دماً «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً» أى بأن خلقناه منها .
 أو ثم جعلنا السلالة نطفة بالتصفية «فِي قَرَارٍ» أى مستقر ، وهو رحم المرأة الذى نقل إليه «مَكِينٍ» أى متمكن لا يعجز ما فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

«ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً» أى بالاستحالة من بياض إلى حمرة كالدّم الجامد «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً» أى قطعة لحم بقدر ما يمضغ «فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا» أى بأن صلبنها وجعلناها عموداً للبدن ، على هيئات وأوضاع مخصوصة ، تقتضيها الحكمة «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا» أى جعلناه محيطاً بها ساتراً لها كاللباس «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» أى بتميز أعضائه وتصويره ، وجعله فى أحسن تقويم «فَتَبَارَكَ اللَّهُ» أى تماظم قدرة وحكمة وتصرفاً «أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» أى المدبرين . ذ (الخلق) بمعنى التقدير كقوله (١) :

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَدَّ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

(١) قائله زهير بن أبى سلمى من قصيدته التى مطلعها :

لَمَنْ الدُّيَارُ بِقِنَّةِ الْحِجْرِ أَقْوَبِينَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ
 يمدح هَرَمَ بن سنان .

لا بمعنى الإيجاد . إذ لا خالق غيره ، إلا أن يكون على الفرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)

[١٦] (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)

[١٧] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ « أى بعد ما ذكر من الأمور العجيبة وتحصيل هذه الكلمات « لَمَيِّتُونَ » أى لصائرهم إلى الموت .

قال المهايى : والحكيم لا يتلف ما استكمل به أنواع التكميل ، ولذلك سيمته كما قال « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » أى من قبوركم للحساب والمجازاة « وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ » أى سبع سموات هى طرق للملائكة والكواكب فيها مسيرها . قال بعض علماء الفلك (فى تفسير هذه الآية) : أى سبعة أفلاك ، للسبع سموات ، لكل سماء طريق تجرى بما معها من الأقمار . قال : فبذلك دلنا الله سبحانه بأن العالم الشمسى ينقسم إلى سبع طرائق ، خلاف طريق الأرض الذى يعينه قوله تعالى (فَوْقَكُمْ) فالسافة ابتداء من منتصف البعد بين الشمس وعطارد تقريباً ، إلى منتهى فلك نبتون ، تنقسم إلى سبعة أقسام بحسب بعد كل سيار . كل قسم تجرى فيه سماء بما معها . ويسمى هذا الطريق فلكاً . اهـ . « وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ » أى عن ذلك الخلق ، الذى هو السموات ، أو جميع المخلوقات . فالتعريف على الأول ، عهدى . وعلى الثانى استغراقى . أى ما كنا مهملين أمر الخلق ، بل نحفظه وندير أمره حتى يبلغ منتهى ما قدر له من الكمال ، حسب اقتضته الحكمة ، وتعلقت به المشيئة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ)

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » أي بتقدير يصلون معه إلى منفعتهم . أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم « فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ » أي جعلناه قارراً فيها ، يتفجر من الأماكن التي أراد سبحانه إحياءها كقوله ^(١) (فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ) « وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ » أي إزالته بالتغيير وبغيره ، كما قدرنا على إزالته . ففي تنكير (ذهاب) إيماء إلى كثرة طرقه ، ومبالغة في الإبعاد به . قال الزمخشري : فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ، ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفاها ، إذا لم تشكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٢٠] (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلآكِلِينَ) « فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا » أي في الجنات « فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً » بالنصب عطف على (جنات) وقرئت مرفوعة على الابتداء . أي ومما أنشأ لكم شجرة « تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ » وهو جبل بفلسطين ، أو بين مصر وأيلة (بفتح الهمزة) محل معروف يسمى اليوم (العقبة) وهو على مراحل من مصر . قاله الشهاب و (الشجرة) شجرة الزيتون ، نسبت إلى الطور لأنه مبدؤها . أو لكثرتها فيه

(١) [٢٩ / الزمر / ٢١] .

« تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ » أى ملتبسة بالدهن المستصبح به « وَصَبْغٌ لِللَّاكِلِينَ » أى وبإدام يغمس فيه الخبز فـ (الصبغ) كالصباغ ما يصبغ به من الإدام . ويختص بكل إدام مائع ، يقال (صبغ اللقمة : دهنها وغمسها) وكل ما غمس فقد صبغ . كذا في (المصباح) و (التاج) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٢٢] (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

« وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً » أى تعتبرون بحالها وتستدلون بها « نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا » أى من الألبان « وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ » أى فى ظهورها وأصوافها وشعورها وتتاجها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » أى بحلقه وتسخيـره وإلهامه . فله الحمد .

قال الزمخشري : والقصد بالأنعام أى الإبل ، لأنها هى المحمول عليها فى العادة . وقرنها بالفلـك التى هى السفائن ، لأنها سفائن البر .

قال ذو الرمة :

* سفينةُ برٍّ تحت خدِّى زمامها *

قال الشهاب : وجعلُ الإبل سفائن البر معروف مشهور . وهى استعارة لطيفة . وقد تصرفوا فيها تصرفات بديعة . كقول بعض المتأخرين :

لَمَنْ شَجَرٌ قَدْ أَثْقَلَتْهَا مَارُهَا سَفَائِنُ بَرٍّ وَالسَّرَابُ بِجَارُهَا

ولما بين تعالى دلائل التوحيد ، تأثره بقصص بعثة الرسل لعلوا كلمته ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[٢٤] (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَقَرَّبًا لَمْ يَدْعُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا « أَيْ الداعى إلى عبادة الله وحده ، بدعوى الرسالة منه « إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ » أَيْ أَنْ يَطْلُبَ الْفَضْلَ عَلَيْكُمْ وَيُرَاسِمَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (١) « وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ » « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ » أَيْ إِسْرَافِ رَسُولٍ « لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » أَيْ مِنَ السَّمَاءِ « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا » أَيْ بِمِثْلِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ « فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * » إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَقَرَّبًا لَمْ يَدْعُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ » أَيْ لَعَلَّهُ يَرْجِعُ أَوْ يَفِيقُ مِنْ جَنَّتِهِ أَوْ يَتَهَادَىٰ فَنُكَيْدِهِ . قَالَ الرَّازِي : وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ مَا ذَكَرَ الْجَوَابَ عَنْ شِبْهِهِمْ هَذِهِ الْخِطْبَةَ ، لِرُكَاكِبَتِهَا وَوُضُوحِ فَسَادِهَا . وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَصِيرُ رَسُولًا إِلَّا لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَلِكِ . وَإِنَّمَا يَصِيرُ كَذَلِكَ بِأَنْ يَتَمَيَّزَ مِنْ غَيْرِهِ بِالْمُعْجَزَاتِ . فَسَوَاءٌ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْمَلِكِ أَوْ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ ، فَمَنْدُ ظُهُورِ الْمُعْجَزِ عَلَيْهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا . بَلْ جَعَلَ الرَّسُولَ مِنْ جَمَلَةِ الْبَشَرِ أَوْلَى . لَمَّا مَرَّ بَيَانُهُ فِي السُّورِ الْمُتَقَدِّمَةِ . وَهُوَ أَنَّ الْجِنْسِيَّةَ مِظَنَّةُ الْأَلْفَةِ وَالْمُؤَانَسَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ (يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ

(١) [١٠ / يونس / ٧٨] .

عَلَيْكُمْ) فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله ، حتى يلزمهم الانقياد لطاعته ، فهذا واجب على الرسول . وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد ، فالأنبياء منزّهون عن ذلك . وأما قولهم (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا) فهو استدلال بعدم التقليد ، على عدم وجود الشيء . وهو في غاية السقوط . لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء . فمدمه من أين يدل على عدمه ؟ وأما قولهم (بِهِ جِنَّةٌ) فقد كذبوا . لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله . وأما قولهم (فَتَرَبَّصُوا بِهِ) فضعيف . لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوته وهى المعجزة ، وجب عليهم قبول قوله في الحال ، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته . لأن الدولة لا تدل على الحقيقة . وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله ، سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر . ولما كانت هذه الأجوبة في نهاية الظهور ، لا جرم تركها الله سبحانه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتَنِي)

[٢٧] (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

فَأَسْلَمَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجِنِ إِنْشِينِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلَا تَحَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِيَّاهُمْ مُعْرِقُونَ)

[٢٨] (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا

مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[٢٩] (وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

[٣٠] (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

« قَالَ » أى بعد ما أيس من إيمانهم « رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتَنِي . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ »

أَنْ اصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا « أى ملتبساً بحفظنا وكلاءنا ، لاتاحقها آفة ولا يعترضها نقص .
عبر بكثرة آله الحس التي بها يحفظ الشيء ، ويراعى من الاختلال والزيغ ، عن المبالغة
في الحفظ والرعاية ، على طريق التمثيل ، وقيل : المعنى بمرأى منا ومشهد في حفظنا وكلاءنا .
بناء على أن المراد بالعين البصر ، وأنه يسمى البصر عينا لأجل أنه مما يتعلق به ويقوم به .
من باب تسمية الشيء باسم محله . وباسم ما هو قائم به .

قال الإمام ابن فورك في (متشابه الحديث) - بعد حكاية نحو ما تقدم - : وقد اختلف
أصحابنا فيما يثبت لله عز وجل من الوصف له بالعين . فمنهم من قال : إن المراد به البصر
والرؤية . ومنهم من قال : إن طريق إثباتها صفة لله تعالى بالسمع . وسبيل القول فيها
كسبيل القول في اليد والوجه . انتهى .

ومذهب السلف ؛ أن الصفات يحمذى فيها حذو الذات . فكما أنها منزهة عن التشبيه
والتمثيل والتكليف ، فكذلك الصفات إثباتها منزّه عن ذلك وعن التحريف والتأويل .
وقوله تعالى « وَوَحِينَا » أى أمرنا وتعليمنا كيف تصنع « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا
« وَفَارَ التَّنُّورُ » كناية عن الشدة . كقولهم (حمى الوطيس) . و (التنور) كانوا الخبز
حقيقة . وأطلقه بعضهم على وجه الأرض ومنبع الماء ، الآية مجازاً « فَاسْأَلْكُمْ فِيهَا » أى
فأدخل في الفلك « مِنْ كُلِّ » أى من كل أمة « زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ
عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى في الدعاء لهم بالنجاة ، عندمشاهدة
هلاكهم « إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ » أى في بحر الهلاك ، كما غرقوا في بحر الضلال وظلمهم أنفسهم ،
بعد أن أملى لهم الدهر المتطاوول « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي » أى في السفينة أو منها « مُتْرَلًا
مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ » أى لمن أنزأته منزل قربك « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما فعل
بنوح وقومه « لآيَاتٍ » أى يستدل بها ويعتبر أولو الأبصار « وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ »

أى مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد . أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا ، لننظر من يعتبر ويدكر . كقولته تعالى (١) (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) و (إن) مخففة على الأصح - وقيل نافية . واللام بمعنى (إلا) والجملة حالية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » هم عاد أو ثمود . قال الشهاب : ليس في الآية تعيين لهؤلاء . لكن الأول مأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما . وأيده في (الكشف) بمجيء قصتهم بعد قصة نوح في سورة الأعراف وهود وغيرها . وعليه أكثر المفسرين . ومن ذهب إلى أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام، استدل بذكر الصيحة لأنهم هم المهلكون بها . كما صرح به في هذه السورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[٣٣] (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

[٣٤] (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)

[٣٥] أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ

(١) [٥٤ / القمر / ١٥] .

[٣٦] (هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ)

[٣٧] (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

[٣٨] (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)

[٣٩] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ)

[٤٠] (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)

[٤١] (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ حَمَلْنَاَهُمُ غُثَاءً ، فَبِعَمَدٍ اللُّقُومِ الظَّالِمِينَ)

« فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ » أى نعمناهم « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ » أى لوزة أنفسكم ، بالتذلل لئلا تمشيتم « أَيَّمَدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ » أى من الأجدات أحياء كما كنتم « هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ » تكرر لئلا كيد البعد . أى بَمَدِّ الوقوع أو الصحة لما توعدون من البعث « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا » أى يموت بعض ويولد بعض . لينقرض قرن ويأتى قرن آخر . « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ » أى العقوبة الهائلة ، أو صيحة ملك « بِالْحَقِّ فَحَمَلْنَاَهُمُ غُثَاءً » أى كغمامة السيل « فَبِعَمَدٍ اللُّقُومِ الظَّالِمِينَ » أى هلاكهم . إخبار أو دعاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ)

[٤٣] (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

[٤٤] (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ، كَلَّمَآ جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاَهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٤٥] (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى وقها الذى عين لهلاكها « وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ » أى متواترين ، واحداً بعد واحد « كَلَّمَآ جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ » أى فى الإهلاك « وَجَعَلْنَاَهُمْ أَحَادِيثَ » أى أخباراً يُسمر بها ويتعجب منها . يعنى أنهم فنوا ولم يبق إلا خبرهم ، إن خيراً وإن شراً .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

« فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ

مُبِينٍ » أى حجة واضحة ملزمة للخصم . والمراد به الآيات نفسها . عبر عنها بذلك على طريقة العطف ، تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ)

[٤٧] (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)

[٤٨] (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا » أى عن الاتقياد وإرسال بنى إسرائيل مع موسى لأرض كنعان ، وتحريرهم من تلك العبودية لهم « وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ » أى متمردين « فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ » أى الغرقين فى البحر .

فائدة :

قال الزمخشري : البشريكون واحداً وجمعاً^(١) (بَشَرًا سَوِيًّا)^(٢) (بِشْرَيْنِ)^(٣) فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ (و (مثل) و(غير) يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ)^(٤) (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)^(٥) ويقال أيضاً : هما مثلاه وهم أمثاله^(٦) (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

[٥٠] (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « لَعَلَّهُمْ » أى قومه « يَهْتَدُونَ » أى إلى طريق الحق ، بما فيها من الشرائع والأحكام « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » أى دلالة على قدرتنا الباهرة . لأنها ولدته من دون مسيس . فالآية أمر واحد نسب إليهما . أو المعنى : وجعلنا ابن مريم آية بما ظهر منه من الخوارق ، وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها « وَآوَيْنَاهُمَا » أى جعلنا مأواهما أى منزلها « إِلَىٰ رَبْوَةٍ » أى أرض مرتفعة « ذَاتِ قَرَارٍ » أى مستقر من أرض منبسطة مستوية . وعن قتادة : ذات ثمار

(١) [١٩ / مريم / ١٧] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٤٧] .

(٣) [١٩ / مريم / ٢٦] . (٤) [٤ / النساء / ١٤٠] .

(٥) [٦٥ / الطلاق / ١٢] . (٦) [٧ / الأعراف / ١٩٤] .

وماء . يعنى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها « وَمَعِينٍ » أى وماء معين ظاهر جارٍ .
من (معن الماء إذا جرى) أو مدرك بالعين (من عانه) إذا أدركه بعينه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)
« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » نداء
وخطاب لجميع الأنبياء باعتبار زمان كلِّ وعهده . فدخل فيه عيسى دخولاً أولياً . أو يكون
ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهيمته أسباب التمتع لم تكن له خاصة . وأن إباحة الطيبات
للأنبياء شرع قديم . واحتجاجاً على الرهبانة فى رفض الطيبات . وقوله (وَاعْمَلُوا صَالِحًا)
أى عملاً صالحاً . فإنه الذى به سعادة الدارين . وقوله (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) أى ذو علم
لا يخفى على منها شىء . فأنا مجازيكم بجميعها ، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها ، فخذوا فى
صالحات الأعمال واجتهدوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)

« وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ » أى واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها
« أُمَّةً وَاحِدَةً » أى ملة واحدة ، وهى شريعة الإسلام . إسلام الوجه لله تعالى بعبادته
وحده . كقوله (١) (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (فالأمة) هنا بمعنى الملة والدين « وَأَنَا
رَبُّكُمْ » أى من غير شريك « فَاتَّقُونِ » أى تخافوا عقابى ، فى مفارقة الدين والجماعة .
قيل : إنه اختير على قوله (فَاعْبُدُونِ) الواقع فى سورة الأنبياء ، لأنه أبلغ فى التخويف ،
لذكرة بعد إهلاك الأمم ، بخلاف ما ثمة . وهذا بناء على أنه تذييل للقصاص السابقة ، أو لقصة

(١) [٣ / آل عمران / ١٩] .

عيسى عليه الصلاة والسلام ، لا ابتداء كلام . فإنه حينئذ لا يفيد . إلا أن يراد أنه وقع في الحكاية لهذه المناسبة . كذا في (الغناية) .

ثم قص ما وقع من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

[٥٤] (فَذَرَهُمْ فِي نَعْمَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

« فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا » أى جعلوا دينهم بينهم قطعاً وفاقاً منوعة « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ، فرح بباطله ، مطمئن النفس ، معتقد أنه على الحق « فَذَرَهُمْ فِي نَعْمَتِهِمْ » أى فى جهالتهم ، ومشيمهم مع هوائهم ، ونبذهم كتاب الله « حَتَّىٰ حِينٍ » أى إلى وقت يستفيقون فيه من سباتهم ، بظهور دين الله وعلو كلمته وهزم عدوه . وشبه جهالتهم بالماء الذى يغمر القامة ، لأنهم مغمورون فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ)

[٥٦] (نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ » أى نعطيمهم إياه ، ونجعله مدداً لهم « مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » أى كلاً . لا نفعل ذلك . بل هم لا يشعرون أصلاً . كالبهايم لا فطنة لهم ولا شعور ، ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم واستحجار إلى زيادة الإثم . وهم يحسبونه معاملة فيما لهم فيه إكرام . ثم بين سبحانه من له المسارعة فى الخيرات من أوليائه وعباده ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٧] (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

[٥٩] (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ)

[٦٠] (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

[٦١] (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)

«إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» أى من خوف عذابه حذرهم «وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ «أى شركاً جليلاً ، ولا خفياً» وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا «أى يعطون ما أعطوه من الصدقات» وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ «أى خائفة» أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ «أى من رجوعهم إليه تعالى ، فتحشى أن تحاسب على ما قصرت من الحقوق ، أو غفلت عنه من الأدب» أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ «أى فى نيل الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة. كفى قوله تعالى^(١) «فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ» وقوله تعالى^(٢) (وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) فقد أثبت لهم مانق عن أضعادهم ، خلا أنه غير الأسلوب ، حيث لم يقل (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) بل أسند المسارعة إليهم ، إيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بحسب أعمالهم . وإيثار كلمة (فى) على كلمة (إلى) للإيذان بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات. لأنهم خارجون عنها ، متوجهون إليها ، بطريق المسارعة كما فى قوله تعالى^(٣) (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ..) الآية أفاده أبو السعود.

(١) [٣/آل عمران/١٤٨] . (٢) [٢٩/المنكبات/٢٧] . (٣) [٣/آل عمران/١٣٣] .

« وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » أى إياها سابقون . أى ينالونها قبل الآخرة ، حيث عجلت لهم فى الدنيا ، فتكون اللام لتقوية العمل . كما فى قوله تعالى ^(١) (هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) وقيل : المراد (بِالْخَيْرَاتِ) الطاعات . والمعنى : يرغبون فى الطاعات والعبادات أشد الرغبة . وهم لأجلها فاعلون السابق ، أو لأجلها سابقون الناس ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَلَا تُنْكَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

[٦٣] (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)
 (وَلَا تُنْكَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » جملة مستأنفة ، سيقت للتحرير على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقه . أى سنتنا جارية على الانكاف نفساً من النفوس إلا ما فى وسعها . أولترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما فى وسعهم . فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين ، فلا عليهم ، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستغفروا ووسعهم ، أفاده أبو السعود .

« وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ » وهو كتاب الأعمال . كقوله تعالى ^(٢) (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا » أى مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين « وَلَهُمْ أَعْمَالٌ » أى سيئة كثيرة « مِنْ دُونِ ذَلِكَ » أى الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم « هُمْ لَهَا عَامِلُونَ » أى ممتادون لا يزالونها .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٦٣] . (٢) [٤٥ / الجانبية / ٢٩] .

تنبية :

أغرب الإمام أبو مسلم الأصفهانيّ فيما نقله عنه الرازيّ ، فذهب إلى أن قوله تعالى (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا . . .) إلى آخر الآية ، من تنمة صفات المؤمنين المشفقين . كأنه سبحانه قال بعد وصفهم (ولا نكلف نفساً إلا وسعها) ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ، ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم بنطق بالحق وهم لا يظلمون . بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ، (بل قلوبهم في غمرة من هذا) هو أيضا وصف لهم بالحيرة كأنه قال : وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ، ولهم أعمال من دون ذلك . أى لهم أيضا من النوافل ووجوه البر سوى ما شئ عليه . إما أعمالاً قد عملوها في الماضي أو سيمعملونها في المستقبل . ثم إنه تعالى رجع .

قال الرازيّ وقول أبي مسلم أولى لأنه إذا أمكن ردّ الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين ، كان أولى من رده إلى ما بعد منه . وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمر آخرته ، بأن قلبه في غمرة ، ويراد أنه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله أو رده ، وفي أنه هل أداه كما يجب أو قصر . انتهى .

وبعد فإن نظم الآية الكريمة يحتمل لذلك . ولكن لم يرد وصف الغمرة في حق المؤمنين أصلاً بل لم يوصف بها إلا قلوب المجرمين . كما تراه في الآيات أولاً . فالذوق الصحيح ورعاية نظائر الآيات ، يأبى ما أغرب به أبو مسلم أشد الإباء . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ » أى متنعميهم « بِالْعَذَابِ » أى بالانتقام ، مثل أخذهم يوم بدر « إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ » أى يصرخون باستغاثة أو الآية . كقوله

تعالى^(١) . (ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا *
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ ، إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ)

[٦٦] (قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ)

[٦٧] (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ)

« لَا تَجَارُ الْيَوْمَ » أى يقال لهم تسكيتاً لهم : لا تجاراً ، فإن الجوار غير نافع لكم
« إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ * قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ
تَنْكِبُونَ » أى تعرضون عن سماعها أشد الإعراض « مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ » أى بالبيت الحرام .
والذى سوغ الإضرار ، شهرتهم بالاستكبار به ، وأن لا مفخر لهم إلا أنهم قوامه . وجوز
تضمين (مستكبرين) معنى (مكذبين) والضمير للتزليل الكريم . أى مكذبين تكذيب
استكبار . ولم يذكر احتمال إرجاع الضمير (للنكوص) إشارة إلى زيادة عقوبهم ، وأنهم
يفتخرون بهذا الإعراض ولا يرهبون مما يندرون به ، كقوله^(٢) (وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا » وليس
ببعيد . فتأمل . « سَامِرًا تَهْجُرُونَ » يعنى أنهم يسمرون ليللاً بذكر القرآن وبالظن فيه ،
وتسميته سجرأً وشعراً ونحو ذلك . وهو معنى (تهجرون) من (الهجر) بالضم ، وهو
الفحش فى القول . أو معناه تعرضون . من (الهجر) بالفتح .

تنبیه :

قال أبو البقاء : (سامراً) حال أيضاً وهو مصدر . كقولهم (قم قائماً) وقد جاء من
المصادر على لفظ اسم الفاعل نحو العاقبة والمافية . وقيل : هو واحد فى موضع الجميع . انتهى

(١) [٧٣ / ١١ - ١٣] . (٢) [٣١ / لقمان / ٧] .

فيكون واحداً أقيم مقام الجمع . وقيل هو اسم جمع كحاج وحاضر وراكب وغائب . قال الشهاب : وعلى كونه مصدرراً فيشمل القليل والكثير أيضاً ، باعتبار أصله . ولكن مجيء المصدر على وزن (فاعل) نادر . وقرئ (سَمَرًا) بضم وتشديد . (سَمَار) بزيادة ألف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَلَمْ يَتَذَكَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)

« أَفَلَمْ يَتَذَكَّرُوا الْقَوْلَ » أى القرآن ، ليعلموا أنه الحق المبين ، فيصدقوا به وبمن جاء به « أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ » أى من الهدى والحق ، فاستبدعوه واستبعدوه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال . مع أن المجيء بما لم يعهد ، لا يوجب النفرة . لأن المألوف قد يكون باطلاً ، فنتقتضى به الحكمة التحذير منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

[٧٠] (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)

« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » أى جاحدون بما أرسل به . وهذا توبيخ آخر يشير إلى عظيم جهالتهم ، بأنهم ما عرفوا شأنه ولا دروا سر ما بث به مما يؤسف له . كما قال (١) (يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) « أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون ، أو جن يخبلونه . وهذا توبيخ آخر ، فيه تعجيب من تلونهم في الجحود ، وتفنتهم في العناد . ثم أشار إلى أنه لم يحملهم على ذلك إلا أنقذهم للحق كبراً وعتواً بقوله « بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » أى لما فيهم من الزيف والانحراف .

(١) [٣٦ / يس / ٣٠] .

قال القاشاني : ولما أبطلوا استعداداتهم وأطفأوا نورها بالرين والطبع ، على مقتضى قوى النفس والطبع ، واشتد احتجابهم بالغواشى الظلمانية عن نور الهدى والعقل ، لم يمكنهم تدبر القول ولم يفهموا حقائق التوحيد ، والعدل فنسبوه إلى الجنة ولم يعرفوه ، للتقابل بين النور والظلمة ، والتضاد بين الباطل والحق ، وأنكروه وكرهوا الحق الذى جاء به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ،

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)

[٧٢] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا نَفَرًا رُبُّكَ خَيْرٌ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[٧٣] (وَلِإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[٧٤] (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كَبِيرُونَ)

« وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » أى ولو كان

ما كرهوه من الحق الذى هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله عايه ، موافقا لأهوائهم المتفرقة فى الباطل ، الناشئة من نفوسهم الظالمة المظلمة ، لفسد نظام الكون لانعدام العدل الذى قامت به السموات والأرض ، والتوحيد الذى به قوامهما . فلزم فساد الكون لأن مناط النظام ليس إلا ذلك . وفيه من تنويه شأن الحق ، والتنبيه على سمو مكانه ، ما لا يخفى « بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ » إضراب عن توبيخهم بكرامته ، وانتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها . أى ليس هو مكروهاً بل هو عظة لهم لو اتعظوا . أو فخرهم أو متمناهم لأنهم كانوا يقولون ^(١) (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ) « فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ » أى بالنكوص عنه . وأعاد الذكر تفخيماً . وأضافه لهم لسبقه . وفى سورة الأنبياء ^(٢) (ذِكْرٍ رَبِّهِمْ) لاقتضاء ما قبله له « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا »

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٨ و ١٦٩] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٢] .

أى جملا على أداء الرسالة ، فلاجل ذلك لا يؤمنون «فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ» أى عطاؤه « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كِبُونَ » أى منحرفون . قال القاشانى : الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه ، هو طريق التوحيد المستلزم لحصول العدالة فى النفس ، ووجود المحبة فى القلب . وشهود الوحدة . والذين يحتجبون عن عالم النور بالظلمات ، وعن القدس بالرجس ، إنعاسهم منهمكون فى الظلم والبغضاء والمداوة ، والركون إلى السكثرة . فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون منحرفون إلى ضده . فهو فى واد وهم فى واد . وقال الزمخشري : قد أزمهم الحجة فى هذه الآيات ، وقطع معاذيرهم وعملهم ، بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سره وعلنه ، خليق بأن يجتبي مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلباً إلى النيل من دينهم ، واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام ، الذى هو الصراط المستقيم . مع إبراز المسكنون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان ، وتعلمهم بأنه مجنون ، بعد ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكرهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قال ابن جرير^(١) : أى ولو رحمتنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجذب ، وضر الجوع والهزال (للجوفى طغيانهم) يعنى فى عتوتهم وجراتهم على

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

رَبِّهِمْ (يَعْمَهُونَ) يعني يترددون . وأشار ابن كثير^(١) إلى معنى آخر فقال : يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم ، بأنه لو أراح عنهم الضر ، وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ، ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطفياهم . كما قال تعالى^(٢) (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) وقال^(٣) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) الآية . فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ، لو كان كيف يكون . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

« وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ » .

قال ابن جرير^(٤) : أي ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بمذابنا ، وأزلنا بهم بأسنا وسخطنا ، وضيقنا عليهم معاشهم ، وأجدبنا بلادهم ، وقتلنا سرايهم بالسيف فاستكانوا لربهم . أي فما خضعوا لربهم ؛ فبنقادوا لأمره ونهيه ، وبنيبوا إلى طاعته . وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أخذ الله قريشا بسنى الجذب ، إذ دعا عليهم رسول الله ﷺ . وعن الحسن قال : إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء ، فإنما هي نعمة . فلا تستقبلوا نعمة الله بالحمية . ولكن استقبلوها بالاستغفار ، وتضرعوا إلى الله . وقرأ هذه الآية (وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥١ من الجزء الثالث .

(٢) [٨ / الأنفال / ٢٣] . (٣) [٦ / الأنعام / ٢٧ و ٢٨] .

(٤) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ » يعنى ما نزل بهم من القتال والقتل يوم بدر ، أو باب المجاعة والضر ، وهو ما روى عن مجاهد واختاره ابن جرير ^(١) « إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى حزنى نادمون على ما ساف منهم ، فى تكذيبهم بآيات الله ، فى حين لا ينفعهم القدم والحزن . ثم أشار تعالى إلى قدرته على البعث بآياته المبصرة فى الأنفس والآفاق ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ » أى لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله فى ذلك ، بصرفها لما خلقت له . وهو أن يدرك وفى كل شىء له آيةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الْوَاحِدُ

والقلة فى الآية هذه ونظائرها ، بمعنى النفى ، فى أسلوب التنزيل الكريم . لأن الخطاب

للمشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[٨٠] (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٨١] (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى خلقكم وبثكم بالتمناسل فيها « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى تجمعون يوم القيامة، بعد تفرقكم إلى موقف الحساب « وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ » أى خلقه ، أى يجعلهم أحياء ، بعد أن كانوا نطفاً أمواتاً ، ينفخ الروح فيها ، بعد الأطوار التى تاتى عليها « وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى بالطول والقصر . فهو متوايه ولا يقدر على تصر يفهما غيره « أَفَلَا تَعْلَمُونَ » أى : إن من أنشأ ذلك ابتداء من غير أصل ، لا يعتمتع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم . ثم بين تعالى أنهم لم يعتبروا بآياته ، ولا تدبروا ما احتج عليهم من الحجج الدالة على قدرته على فعل كل ما يشاء ، بقوله « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ » أى من الأمم المكذبة رسلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ)

[٨٣] (لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ » أى أحياء ، كهميتنا قبل الممات « لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى ما سطره فى كتبهم ، مما لا حقيقة له :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[٨٥] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعلمون أن من ابتداء ذلك ، قدر على إعادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

[٨٧] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ »

أى عقابه على شرككم به ، وتكذيبكم خبره وخبر رسوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قُلْ مَنْ يَدِينَهُ مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ)

[٨٩] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنِي تُسْحَرُونَ)

« قُلْ مَنْ يَدِينَهُ مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ » أى يغيث من أراد ، ممن قصد بسوء

« وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » أى ولا أحد يمتنع ممن أراده هو بسوء ، فيدفع عنه عذابه وعقابه « إِنْ

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِي تُسْحَرُونَ » أى تحذعون عن توحيدهِ وطاعته ، مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة فـ (السحر) مستعار للخديعة . وتكرير (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

لاستهانتهم ، وتجهيلهم ، لسجال ظهور الأمر .

قال في (الإكليل) : قال مكي : في هذه الآيات دلالة على جواز محاجة الكفار والمبطلين ،

وإقامة الحجة وإظهار الباطل من قولهم ومذهبهم ، ووجوب النظر في الحجج على من خالف

في دين الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[٩١] (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ

بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ)

[٩٢] (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٩٣] (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ)

[٩٤] (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى دعواهم أن له ولداً ومعه شريكا
 «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَّ
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » لأنه يجب أن يتخالفا بالذات، وإلا لما تَصَوَّرَ العدد والمتخالفان بالذات
 يجب أن يتخالفا فى الأفعال. فيذهب كل بما خلقه، ويستبد به، ويظهر بينهم التحارب والتغالب،
 فيفسد نظام الكون ، كما تقدم بيانه فى آية^(١) (لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)
 « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا
 تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ » أى من العذاب . أى إن كان لا بد من أن ترىنى . لأن (ما) و(النون)
 للتأكيد « رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى نجنى من عذابهم . وفيه إيذان بكال
 فظاعة ما وعدوه من العذاب ، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يمكن أن
 يحيق به . ورد لإنكارهم إياه واستمجالهم به ، استهزاء . وتكرير النداء ، لإظهار زيادة
 الابتهاال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

[٩٦] (اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

[٩٧] (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)

[٩٨] (وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ)

[٩٩] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

[١٠٠] (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ،

وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرَزَخُ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ » أى من العذاب «لِقَادِرُونَ» أى: وإنما تؤخره لحكمة

بلوغ الكتاب أجله « اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى بالخلة التى هى أحسن الخلال ، وهو

العفو والصفح « السَّيِّئَةِ » أى أذى المشركين « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أى فسيرون

جزاءه « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » أى وساوسهم المغرية على الباطل

والشرور والفساد ، والصدّة عن الحق «وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ» أى يحضرونى فى حال

من الأحوال « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا

تَرَكْتُ » أى حتى إذا احتضر وشاهد أمارات العذاب، وعاین وحشة هيئات السيئات، تبنى

الرجوع ، وأظهر الندامة ، ونذر العمل الصالح فى الإيمان الذى ترك. وقوله تعالى « كَلَّا إِنَّهَا

كَلِمَةٌ » أى قوله (رَبِّ ارْجِعُونِ) الخ « هُوَ قَائِلُهَا » أى لا يجاب إليها ولا تسمع

منه ، يعنى أنه لم يحصل إلا على الحسرة والندامة ، والتلفظ بألفاظ التحسر والندم ، والدعوة

دون المنفعة والفائدة والإجابة . والآية نظيرها قوله تعالى (١) « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ

قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنَّ

مِنَ الصَّالِحِينَ) « وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرَزَخُ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى حائل يحول بينهم وبين

الرجعة ، يلبثون فيه إلى يوم القيامة .

(١) [٦٣ / المنافقون / ١٠] .

لطيفة :

الواو في (ارجمون) قيل لتعظيم المخاطب وهو الله تعالى ، وردّه ابن مالك بأنه لا يعرف أحداً يقول (رب ارحموني ، ونحوه) لما فيه من إيهام التعدد . مدفوع بأنه لا يلزم من عدم صدوره عنا كذلك ، ألا يطلقه الله تعالى على نفسه . كما في ضمير المتكلم . وقيل إنه لتكرير قوله (ارجموني) كما قيل في (قفا) و (أطرقاً) إن أصله (قف قف) على التأكيد ، وبه فسر قوله تعالى ^(١) (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ) قال الشهاب : فيكون من باب استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنكتة ، بقطع النظر عن معناه ، وهو كثير في الضائر . كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر في (كفي به) حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى ، ومن لفظ إلى آخر . وما نحن فيه من هذا القبيل . فإنه غير الضميران المستتران إلى ضمير مثنى ظاهر . فلزم الاكتفاء بأحد لفظي الفعل ، وجعل دلالة الضمير على المثنى على تكرير الفعل ، قائماً مقامه في التأكيد ، من غير تجوز فيه . ولا بن جنى في (الخصائص) كلام يدل على ما ذكرناه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ » أى لشدة الهول من هجوم ماشغل البال حتى زال به التعاطف والتآلف ، إذ ^(٢) (يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) ونفى نفع النسب ، إذا دهم مثل ذلك معروف .

كما قال :

لَا نَسَبَ الْيَوْمَ وَلَا خُلَّةٌ اتَّسَعَ الطَّرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ

(١) [٥٠ / ق / ٢٤] . (٢) [٨٠ / عبس / ٣٤ - ٣٧] .

« وَلَا يَنْسَاءُ لُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضاً ، لعظم الفزع وشدة ما بهم من الأهوال ، وذهولهم عما كان بينهم من الأحوال ، فتنقطع العلائق والوصل التي كانت بينهم ، وحتى أن نفى التساؤل إنما هو وقت النفخ ، كما دل عليه قوله (فَإِذَا) أى فوقت القيام من القبور وهول المطلع يشغل كل نفسه . وأما ما بعده فقد يقع التساؤل ، كما قال تعالى ^(١) (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) لأن يوم القيامة يوم ممتد . ففيه مشاهد ومواقف . فيقع في بعضها تساؤل وفي بعضها دهشة تمنع منه .

تنبيه :

روى هنا بعض المفسرين أخباراً في نفع النسب النبوي . وحبذا لو روى شيء منها في الصحيحين ، أو في مسانيد من التزم الصحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[١٠٣] (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)

[١٠٤] (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

« فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ » أى رجحت حسناته « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أى بتضييع ما منحت من الاستعداد

لأن ترجح في تجارة الكمال ، بفطرة الإيمان وصالح الأعمال ، ولله در القائل :

إذا كان رأس المال عمرك ، فاحترس عليه من الإنفاق في غير واجب

« فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ » أى تحرقها . وتخصيص الوجوه لأنها

أشرف الأعضاء . فبيان حالها أزرع عن المعاصي المؤدية إلى النار « وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » أى مشوهون ، فيبحو النظر . ويقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً .

(١) [٣٧ / الصفات / ٢٧] و [٥٢ / الطور / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِي تُتلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ)

[١٠٦] (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)

« أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِي تُتلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا »

أى ملكتنا « شِقْوَتُنَا » أى التى افترفناها بسوء اختيارنا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » أى عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب . قال أبو السعود: وهذا، كما ترى، اعتراف منهم ، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم . وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية ، فمع أنه باطل في نفسه ، لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ، ضرورة أن العلم تابع للمعلوم - يردّه قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)

[١٠٨] (قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

[١٠٩] (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءِإِئْمَنَّا فَأَغْرِزْ لَنَا وَارْحَمْنَا

وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

[١١٠] (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

« رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » أى أخرجنا من النار ، وارجعنا إلى الدنيا . فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى ، فإننا متجاوزون الحد في الظلم . ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم ، لما سألوا الرحمة إلى الدنيا ، ولما وعدوا الإيمان والطاعة « قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا » أى ذلوا فيها كخس الكلاب « وَلَا تُكَلِّمُونِ »

أى فى رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف . ثم أشار إلى علة ذلك بقوله تعالى « إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي » وهم المؤمنون « يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِبًا حَتَّىٰ أَنسَوْهُمْ » أى بتشاغلهم على تلك الصفة « ذَكَرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ » .

ثم أشار تعالى لبيان حسن حالهم ، وأنهم انتفعوا بما آذوهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

[١١٢] (قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)

[١١٣] (قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ)

[١١٤] (قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ » أى الله أو الملك المأمور بسؤالهم « كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى شيئاً ما . أولو كنتم من أهل العلم . والجواب محذوف ، ثقة بدلالة ما سبق ، عليه . أى لعلمت يومئذ قلة لبشكم فيها ، كما علمت اليوم . ولعلمت بموجبه ولم تخلدوا إليها .

قال الرازى : الغرض من هذا السؤال التبعييت والتوبيخ ، فقد كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة أصلاً ، ولا يعدون اللبث إلا فى دار الدنيا . ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ، ولا إعادة . فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون ، سألمهم : كم لبئتم فى الأرض ؟ تنبيهاً لهم على أن ما ظنوه دائماً طويلاً ، فهو يسير ، بالإضافة إلى ما أنكروه . فحينئذ تحصل

لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا . من حيث أيقنوا خلافه . فليس الغرض مجرد السؤال ، بل ما ذكر .

قال الزمخشري : استقصروا مدة لبثهم في الدنيا ، بالإضافة إلى خلودهم ، ولما هم فيه من عذابها . لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها . أولأنهم كانوا في سرور . وأيام السرور قصار . أولأن النقصى في حكم ما لم يكن . وصدقهم الله في تقالهم لسنى لبثهم في الدنيا ، ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها . وقرئ (فَسَلِ الْعَادِّينَ) والمعنى : لانعرف من عدد تلك السنين ، إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم . للمأخن فيه من العذاب ، وما فينا أن نمدّها ، فسئل من فيه أن يمدّه ، ويقدر أن يلقى إليه فسكروه . وقيل : فسئل الملائكة الذين يمدون أعمار العباد ويحسون أعمالهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[١١٦] (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[١١٧] (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ،

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » أى بغير حكمة ، حتى أنكروتم البعث « وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » أى للجزاء « فَتَعَالَى اللَّهُ » أى تعظم عما تصفون ، لأنه « الْمَلِكُ الْحَقُّ » أى المتصرف وحده ، الذى قصد بالخلق معرفته وعبادته . والذى لا يترك الجزاء بل يحق الحق « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » أى العظيم المجيد . وقرئ بالرفع « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

قال ابن جرير^(١): أى: ومن يدع مع المعبود الذى لا تصلح العبادة إلا له، معبوداً آخر لاحجة له بما يقول ولا بينة. فإنما حساب عمله السيئ عند ربه. وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه. فإنه لا ينجح أهل الكفر بالله، عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء فى النعيم، قال الزمخشري: وقوله (لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) كقوله^(٢) (مَا لَهُمْ يُنَزَّلُ بِهِ سُلْطَانًا) وهى صفة لازمة، نحو قوله^(٣) (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) جىء بها للتوكيد، لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان. ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء. كقولك (من أحسن إلى زيد - لا أحق بالإحسان منه - فالله مثيبه).

قال فى (الاتصاف): إن كان صفة، فالمقصود بها التهمكم بمدعى إله مع الله، كقوله^(٢) (بَلْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ مِنْهُ سُلْطَانًا) فنفى إزال السلطان به، وإن لم يكن فى نفس الأمر سلطان، لا منزل ولا غير منزل.

وقال الرازى: نبه تعالى بالآية، على أن كل ما لا برهان فيه، لا يجوز إثباته، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد. انتهى.

ثم أمر تعالى نبيه بالابتهاال إليه واستغفاره والثناء عليه، بقوله « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » أى خير من رحم ذا ذنب، فقبل توبته.



(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية).

(٢) [٣ / آل عمران / ١٥١]. (٣) [٦ / الأنعام / ٣٨].